سورة هود

مكيــة، مائــة وثلاث وعشــرون آيــة، وألــف وتســعمائة وسبعمائة وخمس وعشرون كلمة، وستة آلاف وســتمائة وخمسة أحرف

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. الر كِتَـابٌ أُحْكِمَـتْ ءايَٰتُـهُ} أي نظمت نظماً رصيفاً متقناً {ثُـمَّ فُصِّـلَتْ} أي جعلـت فصـولاً مـن دلائل التوحيد والنبوة، والأحكام، والمواعظ، والقصـص {مِـن لَّـدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ} صفة ثانية لكتاب أو صلة للفعلين كـأنه تعـالى يقـول: أحكمت آياته من عنـد حكيـم أي واضـع الشـيء بالحكمـة وفصـلت آياته من عند خبير أي عالم بكيفيـات الأمـور {أَلاَّ تَعْبُـدُوۤاْ إِلاَّ ٱللَّـهَ} ف«أن» تفسيرية لفصلت فإنها في معنى القول {إِنَّنِى لَكُمْ مِّنْـهُ} أي من جهة الحكيم الخبير {نَذِيرٌ} بعذابه إن عبدتم غير الله تعـالى {وَبَشِيرٌ} بثوابه إن تمحضتم فـي عبـادته {وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُـمْ} معطوف على أن لا تعبدوا {ثُمَّ تُوبُوۤاْ إِلَيْـهِ} أي اطلبـوا مـن ربكـم ستر ما سلف منكم من الشرك ثم أقبلـوا إليـه بالطاعـة والإخلاص {يُمَتِّعْكُمْ مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى} أي يعشكم عيشـاً مرضـياً إلى وقت مقدر عند الله تعالى وهو آخر أعماركم فمـن أخلـص للـه في القول والعمل عاش في أمن من العذاب وراحـة ممـا يخشـاه، ومن اشتغل بمحبة الله كان انقطـاعه عـن الخلـق أكمـل وسـروره أتم لأنه آمن من زوال محبوبه ومن كان مشتغلاً بحب غير الله كان أبداً في ألم الخوف مـن فـوات المحبـوب {وَيُـؤْتِ} أي يعـط فـي الدنيا وفي الآخرة {كُلَّ ذِي فَضْلٍ} في الإسلام والطاعة {فَضْـلَهُ} أي ثوابه {وَإِن تَوَلَّـوْاْ} أي تعرضـوا عمّـا ألقـي إليكـم مـن التوحيـد والاستغفار والتوبة {فَإِنِّىۤ أَخَافُ عَلَيْكُمْ} بموجب الشفقة {عَـذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ} هو يوم القيامة {إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ} ثم البعـث للجـزاء {وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ} فيقدر علـى تعـذيبكم بأفـانين العـذاب {أَلا إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُواْ مِنْهُ أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ} أي تنبه أن الكفار يضمرون خلاف ما يظهرون ليسـتخفوا مـن اللـه تعالى حين يغطون رؤوسهم بثيابهم للاستخفاء.

روي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في الأخنس بن شريق وأصحابه من منافقي مكة وكان رجلاً حلو المنطق، حسن المنظر، يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم ويضمر في قلبـه العـداوة {يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ} في قلوبهم {وَمَا يُعْلِنُونَ} بأفواههم {إِنَّهُ عَلِيـمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ} أي إنه تعالى مبالغ في الإحاطـة بمضـمرات جميـع الناس وأسرارهم الخفية المستكنة في صدرهم فلا فائدة لهـم فـي

استخفائهم {وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلأَرْضِ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا} أي غذاؤها اللائق بها.

روي أن موسى عليه السلام تعلق قلبه بأحوال أهله فأمره الله تعالى أن يضرب بعصاه على صخرة فانشقت وخرجت صخرة، ثم ضرب بعصاه فانشقت وخرجت صخرة ثانية، ثم ضرب بعصاه عليها فانشقت وخرجت صخرة ثالثة، ثم ضربها بعصاه فانشقت فخرجت منها دودة كالذرة، وفي فيها شيء يجري مجرى الغذاء لها ورفع الله الحجاب عن سمع موسى عليه السلام فسمع الدودة تقول سبحان من يراني وسمع كلامي ويعرف مكاني ويذكرني ولا ينساني {رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ} أي مكانها في الأرض قبل الموت وبعده {مُسْتَقَرَّهَا} أي موضعها قبل الاستقرار من صلب أو رحم بيضة {وَمُسْتَوْدَعَهَا} من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها وأحوالها {كُلٌّ فِى كِتَابٍ} أي ثابت في علم الله ومذكور في اللوح المحفوظ {وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ} أي خلق السموات في يومين، والأرض في يومين، وما عليها من أنواع الحيوانات والنبات وغير ذلك في يومين {وَكَانَ عَرْشُهُ} قبل خلقهما {عَلَى ٱلْمَآءِ} قال صلى الله عليه وسلم: «كان الله وما كان معه شيء، ثم كان عرشه على الماء» أي والعرش الذي هو أعظم المخلوقات قد أمسكه الله تعالى فوق سبع سموات من غير دعامة تحته ولا علاقة فوقه وذلك يدل على كمال قدرته تعالى {لِيَبْلُوَكُمْ} أي خلق السموات والأرض وما فيهما ورتب فيها جميع ما تحتاجون إليه من مبادي وجودكم وأسباب معايشكم وأودع فيهما ما تستدلون به على مطالبكم الدينية ليعاملكم معاملة من يختبركم {أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً} أي أحسن عقلاً وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله فإن لكل من القلب والقالب عملاً مخصوصاً به {وَلَئِن قُلْتَ} يا أشرف الخلق لأهل مكة {إِنَّكُمْ مَّبْعُوثُونَ} أي محيون {مِن بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ} منهم {إِنْ هَٰذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ} أي ما هذا القول إلا خديعة منكم وضعتموها لمنع الناس عن لذات الدنيا وإحرازاً لهم إلى الاعتقاد لكم والدخول تحت طاعتكم.

وقرأ حمزة والكسائي «إلا ساحر» أي كاذب وحينئذ فاسم الإشارة عائد على النبي أو القرآن {وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ} الذي هددهم الرسول الله صلى الله عليه وسلم به {إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ} أي إلى انقراض جماعة من الناس بعد هذا التهديد بالقول {لَّيَقُولُنَّ} بطريق الاستعجال استهزاء {مَا يَحْبِسُهُ} أي أيّ شيء يمنع العذاب من المجيء إلينا {أَلاَ} أي تنبهوا {يَوْمَ يَأْتِيهِمْ} أي

العـذاب {لَيْـسَ مَصْـرُوفاً عَنْهُـمْ} أي فلا يرفـع رافـع أبـداً عـذاب الآخرة ولا يدفع عنهم دافع عذاب الـدنيا {وَحَـاقَ بِهِـم مَّـا كَـانُواْ بِـهِ يَسْتَهْزِءُونَ} أي أحاط بهم ذلك العـذاب {وَلَئِـنْ أَذَقْنَـا ٱلإِنْسَـٰنَ مِنَّـا رَحْمَـةً} أي أعطينـاه نعمـة كغنـىً وصـحة {ثُـمَّ نَزَعْنَاهَـا مِنْـهُ إِنَّـهُ لَيَئُوسٌ} أي قاطع رجاءه من عود أمثالها لقلـة صـبره وعـدم ثقتـه بالله {كَفُورٌ} أي عظيم الكفران لما سلف من النعم {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ} كصحة بعد سقم وفرج بعد شدة {لَيَقُـولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّئَاتُ عَنِّيۤ} أي المصائب الـتي تحزننـي {إِنَّـهُ لَفَـرِحٌ} أي بطر بالنعم مغتر بهـا {فَخُـورٌ} علـى النـاس بمـا أوتـي مـن النعـم مشغول بذلك عن الشكر {إِلاَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ} عند البلاء استسـلاماً لقضاء الله {وَعَمِلُواْ ٱلصَّلِحَاتِ} عند الراحـة والخيـر شـكراً علـى ذلك {أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ مَّغْفِرَةٌ} عظيمة لذنوبهم وإن جمـت {وَأَجْـرٌ} أي ثواب {كَبِيرٌ} لأعمالهم الحسنة {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْـكَ وَضَآئِقٌ بِهِ صَدْرُكَ} فلعل للزجر وللتبعيد أي لا تترك تبليغ بعـض مـا يوحى إليك من البينات الدالة على حقيقة نبوتـك ولا يضـق صـدرك بتلاوته عليهم في أثناء الدعوة والمحاجـة كراهـة {أَن يَقُولُـواْ لَـوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ} أي على محمد {كَنزٌ} أي مال كثير مخزون يـدل علـى صدقه {أَوْ جَآءَ مَعَهُ مَلَكٌ} يصدقه.

والمعنى لا تترك التبليغ ولا يضق صدرك به بسبب قول القوم لك إن كنت صادقاً في أنك رسول الإله الذي تصـفه بالقـدرة علـى كل شـيء وبأنـك عزيـز عنـده مـع إنـك فقيـر فهلا أنـزل عليـك مـا تستغني به وتغني أحبابك من الكـدر والعنـاء وإن كنـت صـادقاً فهلا أنزل عليك ملكاً يشهد لك بالرسالة فتزول الشبهة في أمرك فلمـا لم يفعل إلهك ذلك فأنت غير صادق فنزل قوله تعالى: {إِنَّمَـآ أَنـتَ نَذِيرٌ} فلا تبال بما صدر عنهم من الـرد والقبـول {وَٱللَّـهُ عَلَـىٰ كُـلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ} أي حفيظ فتوكل عليه في جميـع أمـورك فـإنه فاعـل بهم ما يليق بحالهم.

{أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ} أي بل أيقولون افترى محمد القرآن من تلقاء نفسه وليس من عند الله {قُلْ} لهم إرخـاء للعنـان: إن كـان الأمر كما تقولون {فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ} أي القرآن فـي البلاغـة وحسن النظم {مُفْتَرَيَاتٍ} من عند أنفسكم فإنكم أقدر ذلـك منـي لأنكم عرب فصحاء ممارسـون للأشـعار، ومزاولـون أنـواع النظـم والنثر {وَٱدْعُواْ} للمعاونة في المعارضة {مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ مِّـن دُونِ ٱللَّهِ} أي من الأصنام والكهنة {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} فـي ادعـاء كـون القرآن مفترى على الله {فَإِلَّمْ يَسْـتَجِيبُواْ} أي مـن تـدعونهم مـن دون الله {لَكُمْ} أيها الكفار في الإعانة على المعارضة {فَٱعْلَمُوۤاْ}

يا معشر الكفار {أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّـهِ} أي إن الـذي أنـزل ملتبـس بعلم الله أي هو من عند الله إذ لو كان مفترى على اللـه لـوجب أن يقدر الخلق على مثله ولما لم يقدروا عليه ثبـت أنـه مـن عنـد اللـه {وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ} أي واعلموا أنه لا شـريك لـه فـي الألوهيـة ولا يقدر على ما يقدر هو عليه أحـد، أي لمـا ثبـت عجـز الخصـوم عـن المعارضة ثبت كون القرآن حقاً وثبت كون محمد صـلى اللـه عليـه وسلم صادقاً في دعوى الرسالة وفي خبره أنه لا إلهٰ إلا الله {فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ} أي فهل أنتم داخلون في الإسلام.

والمعنى فإن لم يستجب لكم آلهتكم وسائر من إليهم تجأرون في ملماتكم إلى المعاونة فاعلموا أن القرآن خارج عن دائرة قدرة البشر وأنه منزل من خالق القوى والقدر، واعلموا أيضاً أن آلهتكـم بمعزل عن رتبة الشركة في الألوهية فهل أنتم داخلون في الإسلام بعد قيام هذه الحجة القاطعة {مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا} بعمل الخير من العبادات وإيصـال المنفعـة إلـى الحيوانـات {نُـوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا} أي نوصل إليهم ثمـرات أعمـالهم فـي الحيـاة الدنيا كاملة {وَهُمْ فِيهَا} أي في الحياة الـدنيا {لاَ يُبْخَسُـونَ} أي لا ينقصون نقصـاً كليـاً ولا يحرمـون مـن ذلـك حرمانـاً كليـاً وهـو مـا يرزقون فيها مـن الصـحة والرياسـة، وسـعة الـرزق، وكـثرة الأولاد ونحو ذلك {أُوْلَـٰئِكَ} أي المريدون لزينة الدنيا الموفون فيها ثمـرات أعمـالهم { ٱلَّـذِينَ لَيْـسَ لَهُـمْ فِـى ٱلآخِـرَةِ إِلاَّ ٱلنَّـارُ} بسـبب هـذه الأعمال الفاسدة المقرونة بالرياء.

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تعوذوا بالله من جب الحزن» قيل: وما جب الحزن؟ قال: «وادٍ في جهنم يلقى فيه القراء والمراؤون». وقال صلى الله عليه وسلم: «أشد الناس عذاباً يـوم القيامـة مـن يـرى النـاس أن فيـه خيـراً ولا خيـر فيـه». {وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا} وهذا إن تعلق بحبط، فالضمير عائـد علـى «الآخرة»، أي وظهر في الآخرة حبط ما صـنعوه مـن الأعمـال وإن تعلق «بصنعوا» فالضـمير يعـود علـى الحيـاة الـدنيا أي وحبـط مـا صنعوه فـي الـدنيا مـن أعمـال الـبر {وَبَاطِـلٌ مَّـا كَـانُواْ يَعْمَلُـونَ} فباطل إما خبر مقدم وما بعده مبتدأ مؤخر، أو عطـف علـى الخـبر وما بعده فاعل له، ويرجح هذا قراءة زيد بن علـي وبطـل مـا كـانوا يعملون على صيغة الماضي معطـوف علـى حبـط أي ظهـر بطلان عملهم في نفسه في أثناء تحصيل المطالب الدنيوية.

وقرىء «وباطلاً» ما كانوا يعملون على أن ما إبهامية أو في معنى المصدر.

{أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً} أي أفمن كان على برهان من ربه عرف به صحة الدين الحق ويتبع ذلك البرهان شاهد من ربه وهو القرآن ويتبع ذلك البرهان من قبل مجيء الشاهد الذي هو القرآن شاهد آخر وهو كتاب موسى حال كونه مقتدى به في الدين وسبباً لحصول الرحمة لأنه يهدي إلى الحق في الدنيا والدين كمن يريد الحياة الدنيا وزينتها في أنهم ليس لهم في الآخرة إلا النار، لا بل بين الفريقين تباين بين فالحاصل أنه اجتمع في تثبيت صحة هذا الدين أمور ثلاثة:
أولها: دلالة الدلائل العقلية اليقينية على صحته.
وثانيها: شهادة القرآن بصحته.
وثالثها: شهادة التوراة بصحته فعند اجتماع هذه الثلاثة قد بلغ هذا اليقين في القوة والجلاء إلى حيث لا يمكن الزيادة عليه فلا يبقى في صحته شك {أُوْلَٰئِكَ} أي الموصوفون بالصفات الحميدة {يُؤْمِنُونَ بِهِ} أي بالقرآن كعبد الله بن سلام وغيره ممن اتصف بتلك الصفات وهذا الفريق ليس له في الآخرة إلا الجنة {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ} أي بالقرآن {مِنَ ٱلْأَحْزَابِ} أي أصناف الكفار {فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ} أي مكان وعده وهي التي فيها ما لا يوصف من أفانين العذاب.

روى سعيد بن جبير عن أبي موسى أن النّبيّ صلى الله عليه وسلم قال: «لا يسمع ابن يهودي ولا نصراني فلا يؤمن بي إلا كان من أهل النار». قال أبو موسى: فقلت في نفسي: إن النّبيّ صلى الله عليه وسلم لا يقول مثل هذا إلا عن القرآن فوجدت الله تعالى يقول: {وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُ} {فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ} من أن مصير من كفر بالقرآن النار أن هذا الوعد هو الثابت ممن يربيك في دينك ودنياك والخطاب للنبي. والمراد غيره {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ} بذلك إما لاختلال أفكارهم وإما لعنادهم {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا} بأن نسب إليه ما لا يليق به كقولهم في الأصنام أنها شفعاؤهم عند الله {أُوْلَٰئِكَ} الموصوفون بالافتراء على الله تعالى {يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ} عرضاً تظهر به فضيحتهم أي يساقون إلى الأماكن المعدة للحساب والسؤال {وَيَقُولُ ٱلأَشْهَادُ} من الملائكة الذين كانوا يحفظون أعمالهم في الدنيا والأنبياء عند العرض {هَٰؤُلاۤءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ} بالافتراء عليه ثم لما أخبر الله تعالى عن حالهم في القيامة أخبر عن حالهم في الحال بقوله تعالى: {أَلاَ لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ} بالتزام الكفر والضلال أي

إنهم في الحال الملعونون من عند الله { لَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ} أي الذين يمنعون من الدين الحق كل من يقدرون على منعه بإلقاء الشبهات {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} أي يطلبون سبيل الله زيغاً بتعويج الدلائل المستقيمة {وَهُمْ} أي والحال أنهم {بِٱلآخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ} أي بالبعث بعد الموت جاحدون {أُولَٰئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلأَرْضِ} أي لا يمكنهم أن يفلتوا بأنفسهم من عذاب الله بالهرب من الأرض مع سعتها إن أراد الله تعذيبهم {وَمَا كَانَ لَهُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ} أي أنصار يدفعون عذاب الله عنهم أي إن عدم نزول العذاب ليس لأجل أنهم قدروا على منع الله من إنزال العذاب بالفرار ونحوه، ولا لأجل أن لهم ناصراً يمنع العذاب عنهم كما زعموا أن الأصنام شفعاؤهم عند الله بل لأنه تعالى أمهلهم كي يتوبوا عن كفرهم فإذا أبوا إلا الثبات عليه فلا بد من مضاعفة العذاب في الآخرة كما قال تعالى: {يُضَاعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ} أي فيعذبون في الآخرة على ضلالهم في أنفسهم وعلى إضلالهم غيرهم، وهذا غير خارج عن قوله تعالى: {وَمَن جَاء بِٱلسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلاَّ مِثْلَهَا} (الأنعام: 061).

وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوب بالتشديد {مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ} وهذا تعليل لمضاعفة العذاب أي لأنهم كانوا عاجزين عن الوقوف على دلائل الله تعالى {أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ} أي فإنهم اشتروا عبادة الأصنام بعبادة الله تعالى وهذا أعظم وجوه الخسران {وَضَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} من شفاعة الأصنام لهم فلم يبق معهم غير الندامة {لاَ جَرَمَ} أي لا بد {أَنَّهُمْ فِى ٱلآخِرَةِ هُمُ ٱلأَخْسَرُونَ} بذهاب الجنة وما فيها أي أنهم أخسر من كل خاسر لأنهم أظلم من كل ظالم.

{إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَاتِ وَأَخْبَتُواْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ} أي إن الذين آمنوا بكل ما يجب الإيمان به، وأتوا بالأعمال الصالحات، واطمأنت قلوبهم عند أداء الأعمال إلى ذكر الله فارغة عن الالتفات إلى ما سوى الله تعالى، واطمأنت إلى صدق وعد الله بالثواب على تلك الأعمال وخافت قلوبهم من أن يكونوا أتوا بتلك الأعمال مع وجود الإخلال ومن أن لا تكون مقبولة {أُوْلَٰئِكَ} المنعوتون بتلك النعوت الجميلة {أَصْحَٰبُ ٱلجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} أي دائمون {مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلأَعْمَىٰ وَٱلأَصَمِّ وَ ٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ} أي صفة الكافر كصفة شخص متصف بالعمى والصمم فلا يهتدى لمقصوده، وصفة المؤمن كصفة شخص متصف بالبصر والسمع فاهتدى لمطلوبه {هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً} أي صفة وحالاً {أَفَلاَ

تَذَكَّرُونَ} أي أتشكون في عدم الاستواء ولا تتعظون بأمثال القرآن فتؤمنوا {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّى لَكُمْ نَـذِيرٌ} للعصـاة مـن العقاب {مُّبِينٌ} أي بيـن النـذارة، فـأبين لكـم طريـق الخلاص مـن العذاب. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائي «أنـي» بفتـح الهمـزة أي متلبساً بالإنذار. والباقون بالكسر على معنى فقـال: إنـي لكـم. {أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ ٱللَّهَ} بدل من «أني لكم» إلخ. على قراءة الفتح ومجرور بالباء المقدرة التي للتعدية المتعلقة بأرسلنا {إِنِّى أَخَـافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ} في الدنيا أو في الآخرة {فَقَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ} أي الأشراف منهم {مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِّثْلَنَا} أي ما نعلمك إلا آدمياً مثلنا ليس فيك مزية تخصك بوجوب الطاعة علينا {وَمَا نَرَاكَ ٱتَّبَعَكَ إِلاَّ ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا} أي أخساؤنا كالحجامين والنساجين والأساكفة {بَادِىَ ٱلرَّأْى}.

قرأ أبو عمرو ونصر عن الكسائي «بادىء» بالهمزة. والباقون بالياء ونصبه على الظرفية أي في ابتداء حدوث الرأي ولو احتاطوا في الكفر ما اتبعوك أو في ظاهر رأي العين {وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ} أي لا نرى لك ولمن تبعوك بعد الاتباع فضلاً علينا لا في العقل ولا في رعاية المصالح العاجلة ولا في قوة الجدل {بَلْ نَظُنُّكُمْ كَـٰذِبِينَ} أي بل نظنك يا نوح في دعوى النبوة، ونظن أصحابك كاذبين في تصديق نبوتك {قَالَ} أي نوح: {يٰقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ} أي أخبروني {إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى} أي على برهان عقلي في معرفة ذات الله وصفاته وما يجب وما يمتنع وما يجوز عليه {وَءاتَانِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ} أي نبوة ومعجزة دالة على النبوة {فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ} أي وصار ذلك البرهان مشكوكاً في عقولكم.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «فعميت» بضم العين وتشديد الميم. والباقون بفتح العين وتخفيف الميم {أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَـٰرِهُونَ} أي فهل أقدر على أن أجعلكم بحيث تصلون إلى معرفة ذلك البرهان وأنتم منكرون له. والمعنى أنكم زعمتم أن عهد النبوة لا يناله إلا من له فضيلة على سائر الناس أخبروني إن امتزت عنكم بحيازة فضيلة من ربي وهي دليل العقل وآتاني بحسبها نبوة من عنده فخفي عليكم دليل العقل ولم تنالوه، ولم تعلموا حيازتي لها إلى الآن حتى زعمتم أني مثلكم وهي متحققة في نفسها أنلزمكم قبول نبوتي التابعة لها، والحال أنكم كارهون لذلك فيكون الاستفهام لطلب الإقرار وحاصل الكلام أنهم لما قالوا وما نرى لكم علينا من فضل ذكر نوح عليه السلام أن ذلك بسبب أن الحجة عميت عليكم واشتبهت، فأما لو تركتم العناد واللجاج ونظرتم في الدليل لظهور المقصود وتبين أن الله تعالى آتانا

عليكم فضلاً عظيماً وأنا لا أقدر على إعطاكم الإلهام والمعرفة في تلك الحجة وإنما أقدر على أن أدعوكم إلى الله {وَيٰقَوْمِ لاۤ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِىَ إِلاَّ عَلَى ٱللَّهِ} أي قال نوح عليه السلام: أنا لا أطلب منكم على تبليغ دعوة الرسالة مالاً حتى يتفاوت الحال بسبب كون المستجيب فقيراً وغنياً، وما أجري على هذه الطاعة إلا على رب العالمين، وإن ظننتم أني إنما اشتغلت بهذا التبليغ لأجل أخذ أموالكم فهذا الظن منكم خطأ، وإنما أسعى في طلب الدين لا في طلب الدنيا وهذا يوجب فضلي عليكم، فلا تحرموا أنفسكم من سعادة الدين بسبب هذا الظن الفاسد {وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ} بقولكم لي: امنع واطرد هؤلاء الأسافلة عنك ونحن نتبعك فإنا نستحي أن نجلس معهم في مجلسك {إِنَّهُمْ مُّلاَقُو رَبِّهِمْ} أي إنهم فائزون في الآخرة بلقاء الله تعالى فإن طردتهم استخصموني في الآخرة عنده فأعاقب على طردهم {وَلَـٰكِنِّيۤ أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} إن منزلة المؤمنين عند الله تعالى أعلى وإن طردهم يوجب غضب الله تعالى {وَيٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ} أي بدفع نزول سخطه عني {إِن طَرَدتُّهُمْ} فإن الطرد ظلم موجب للسخط قطعاً {أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} أي أتأمرونني بطردهم فلا تتعظون بما أقول لكم {وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ} حين أدعي النبوة {عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ} أي رزقه وأمواله وهذا رد لقولهم: وما نرى لكم علينا من فضل كالمال {وَلاَ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ} أي ولا أقول: إني أعلم الغيب حتى تسارعوا إلى الإنكار والاستبعاد، وهذا رد لقولهم: وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي، أي في ظاهر حالهم وأول فكرهم وفي الباطن لم يتبعوك فقال نوح لهم: إني إنما أعول على الظاهر لا أعلم الغيب فأحكم به {وَلاَ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ} رد لقولهم ما نراك إلا بشراً مثلنا فكأن نوحاً قال: أنا لم أدَّع الملكية حتى تقولوا ذلك. أي إنكم اتخذتم فقدان هذه الأمور الثلاثة ذريعة إلى تكذيبي والحال أني لا أدعي شيئاً من ذلك ولا الذي أدعيه يتعلق بشيء منها، وإنما يتعلق بالفضائل النفسية التي بها تتفاوت مقادير البشر {وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىۤ أَعْيُنُكُمْ} أي ولا أقول كما تقولون في حق الذين تحتقرهم أعينكم {لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا} أي هداية وأجراً {ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِى أَنفُسِهِمْ} أي بما في قلوبهم من الإيمان {إِنِّيۤ إِذًا} أي إذا قلت ذلك {لَّمِنَ ٱلظَّالِمِينَ} لنفسي ولهم في وصفهم بأنهم لا خير لهم مع أن الله أعطاهم خيري الدارين {قَالُواْ يٰنُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا} أي فأتيت بأنواع الجدال {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ} من العذاب {إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّدِقِينَ} فيما تقول {قَالَ} أي نوح {إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ ٱللَّهُ} أي إن الإتيان بالعذاب الذي تستعجلونه

أمر خارج عن دائرة القوى البشرية وإنما يفعله الله تعالى {إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ} أي بمانعين من العذاب بالهرب أو بالمدافعة كما تدفعونني في الكلام {وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِ إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ} أي إن كان الله يريد أن يضلكم عن الهدى فإن أردت أن أحذركم من عذاب الله وأدعوكم إلى التوحيد لا ينفعكم دعائي إلى التوحيد وتحذيري إياكم من عذاب الله. {هُوَ رَبُّكُمْ} أي مالك التصرف في ذواتكم وفي صفاتكم قبل الموت وعند الموت {وَإِلَيْهِ} تعالى {تُرْجَعُونَ} بعد الموت فيجازيكم على أعمالكم {أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ} أي بل أيقول قوم نوح: إن نوحاً افترى بما أتانا به من عند نفسه مسنداً إلى الله تعالى. {قُلْ} يا نوح: {إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ} أي إن اختلقت الوحي الذي بلغته إليكم من تلقاء نفسي {فَعَلَىَّ إِجْرَامِى} أي فعلي عقاب اكتسابي للذنب وإن كنت صادقاً وكذبتموني فعليكم عقاب ذلك التكذيب {وَأَنَاْ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ} أي من عقاب كسبكم الذنب بإسناد الافتراء إليَّ {وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلاَّ مَن قَدْ ءَامَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ} أي فلا تحزن بما كانوا يتعاطونه من التكذيب والإيذاء في هذه المدة الطويلة فقد انتهى أفعالهم وحان وقت الانتقام منهم {وَ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا} أي اصنع السفينة ملتبساً بإبصارنا لك وتعهدنا بتعليمك كيفية صنعها {وَوَحْيِنَا} أي وبأمرنا لك {وَلاَ تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوۤاْ} أي لا تدعني باستدفاع العذاب عنهم، أو المعنى لا تراجعني في نجاة الذين كفروا: ابنك كنعان وامرأتك واعلة {إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ} أي محكوم عليهم بالإغراق بالطوفان.

{وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ} أي أقبل نوح يصنعها وجعل يقطع الخشب، ويضرب الحديد، ويهيىء القار وكل ما يحتاج إليه في عملها. وقال ابن عباس: اتخذ نوح السفينة في سنتين فكان طولها ثلثمائة ذراع وعرضها خمسين ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثين ذراعاً، وكانت من خشب الساج. وجعل لها ثلاث بطون، فجعل في البطن الأسفل الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه البطن الأعلى، وحمل ما يحتاج إليه من الزاد وغيره. {وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ} أي طبقة من كبرائهم {سَخِرُواْ مِنْهُ} أي كانوا يتضاحكون لعمله السفينة ويقولون: يا نوح كنت تدعي رسالة الله تعالى فصرت بعد ذلك نجاراً، وكان يصنعها في موضع بعيد عن الماء جداً. وكانوا يقولون: ليس ههنا ماء ولا يمكنك نقلها إلى الأنهار العظيمة وإلى البحار فكانوا يعدون ذلك من باب السفه والجنون {قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا

فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ} اليوم منا. أي إن حكمتم علينا بالجهل فيما نصنع فإنا نحكم عليكم بالجهل فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه {فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ} أي فسوف تعلمون أينا يأتيه عذاب في الدنيا، ويهينه وهو عذاب الغرق من هو أحق بالسخرية ومن هو أحمد عاقبة {وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ} أي وأينا ينزل عليه عذاب النار الدائم في الآخرة {حَتَّىٰ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا} أي عذابنا الموعود به {وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ} أي نبع الماء من تنور الخبز وارتفع بشدة كم ا تفور القدر بغليانها.

روي أنه قيل لنوح عليه السلام: إذا رأيت الماء يفور من التنور فاركب ومن معك في السفينة، فلما نبع الماء أخبرته امرأته فركب وقيل: كان التنور لآدم وكانت حواء تقمر فيه فصار إلى نوح وكان من حجارة وهو في الكوفة على يمين الداخل مما يلي باب كندة في المسجد {قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا} أي السفينة {مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ}.

وقرأ حفص «من كل» بالتنوين أي من كل شيء زوجين اثنين كل منهما زوج للآخر. والجمهور على الإضافة أي من كل فردين متزاوجين اثنين بأن تحمل من الطير ذكراً وأنثى، ومن الغنم ذكراً وأثنى وهكذا، وتترك الباقي. والمراد من الحيوانات التي تنفع والتي تلد أو تبيض فيخرج المضرات والتي تنشأ من العفونة والتراب كالدود والقمل والبق والبعوض. {وَأَهْلَكَ} عطف على «زوجين» على قراءة حفص وعلى اثنين على قراءة غيره {إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ} بأنه من المغرقين بسبب ظلمهم في قوله تعالى: {وَلاَ تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ} (هود: 73) الآية. والمراد به: ابنه كنعان وأمه واعلة فإنهما كانا كافرين فحمل في السفينة زوجته المؤمنة وأولادها الثلاثة مع نسائهم سام وحام ويافث. فسام أبو العرب، وحام أبو السودان، ويافث أبو الترك. {وَمَنْ ءَامَنَ} عطف على زوجين أو على اثنين أي واحمل من آمن من غير أهلك {وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ}.

وعن ابن عباس قال: كان في سفينة نوح ثمانون. إنساناً نصفهم رجال ونصفهم نساء. وقال مقاتل: في ناحية الموصل قرية يقال لها: قرية الثمانين سميت بذلك لأن هؤلاء لما خرجوا من السفينة بنوها فسميت بهذا الاسم {وَقَالَ} أي نوح عليه الصلاة والسلام لمن معه من المؤمنين { ٱرْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ} أي اركبوا في السفينة ذاكرين اسم الله {مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَآ} أي وقت جريها وإرسائها قيل: كان نوح عليه السلام إذا أراد أن يجريها

يقول: بسم الله فتجري وإذا أراد أن يرسيها يقول بسم الله فترسو {إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ} أي لولا مغفرته تعالى ورحمته إياكم لما نجاكم لأنكم لا تنفكون عن أنواع الزلات {وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ} في عظمه وارتفاعه وذلك يدل على وجود الرياح الشديدة في ذلك الوقت.

قال علماء السير: أرسل الله تعالى المطر أربعين يوماً وليلة وخرج الماء من الأرض وارتفع الماء على أعلا جبل وأطوله أربعون ذراعاً حتى أغرق كل شيء {وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُ} كنعان قبل سير السفينة {وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ} أي في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وإخوته وقومه بحيث لم يتناوله الخطاب باركبوا {يٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا} في السفينة {وَلاَ تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي في المكان وهو وجه الأرض خارج السفينة لا في الدين لأن نوحاً عليه السلام يحذر ابنه عن الهلكة لا ينهى عن الكفر في ذلك الوقت {قَالَ سَـَٔاوِىٓ} أي ألتجىء}إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ} لارتفاعه {قَالَ} أي نوح: {لاَ عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ} أي عذابه {إِلاَّ مَن رَّحِمَ} أي إلا الله الراحم والتقدير لا فرار من الله إلا إلى الله. وهذا تأويل في غاية الحسن. وقيل: لا مكان يعصم من عذاب الله إلا مكان من رحمة الله وهو السفينة. وقيل: لا ذا عصمة إلا من رحمه الله {وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ} أي حال الموج بين نوح وابنه كنعان {فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ} أي فصار كنعان من المهلكين بالطوفان {وَقِيلَ} أي قال الله {يٰأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ} أي أنشفي ما على وجهك من ماء الطوفان {وَيٰسَمَآءُ أَقْلِعِى} أي أمسكي عن إرسال المطر {وَغِيضَ ٱلْمَآءُ} أي ونقص ما بين السماء والأرض من الماء {وَقُضِىَ ٱلأَمْرُ} أي أتم الأمر من هلاك قوم نوح {وَ ٱسْتَوَتْ} أي استقرت الفلك {عَلَى ٱلْجُودِىِّ} أي على جبل بالجزيرة قريب من الموصل يقال له: الجودي وكان ذلك الجبل منخفضاً.

روي أنه عليه السلام ركب في الفلك في عاشر رجب، ومرت بالبيت الحرام فطافت به سبعاً ونزل عن الفلك عاشر المحرم فصام ذلك اليوم وأمر من معه بصيامه شكر الله تعالى، وبنوا قرية بقرب ذلك الجبل فسموها قرية الثمانين فهي أول قرية عمّرت على الأرض بعد الطوفان {وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي قال نوح وأصحابه بعدوا بعداً من رحمة الله للقوم المشركين بحيث لا يرجى عودهم وهذا الكلام جار مجرى الدعاء عليهم، لأن الغالب ممن يسلم من الأمر الهائل بسبب اجتماع قوم من الظلمة فإذا هلكوا ونجا منهم قال مثل هذا الكلام {وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى} كنعان {مِنْ أَهْلِى} وقد وعدتني إنجاءهم في ضمن قولك

واحمل أهلك {وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ} أي إن كل وعد تعده لا يتطرق إليه خلف {وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ} أي لأنك أعدل الحاكمين وهذا دعاء سيدنا نوح عليه السلام في غاية التلطف وهو مثل دعاء سيدنا أيوب عليه السلام أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين {قَالَ} أي الله تعالى: {يٰنُوحُ إِنَّهُ} أي هذا الابن الذي سألتني نجاته {لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ} الذي وعدتك أن أنجهم معك {إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ} أي لأن هذا الابن ذو عمل غير مرضي.

وقرأ الكسائي ويعقوب «عمل» على صيغة الفعل و«غير» بالنصب أي لأنه عمل عملاً غير مرضي وهو الشرك {فَلاَ تَسْـَٔلْنِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} أي إذا وقفت على جلية الحال فلا تطلب مني مطلباً لا تعلم يقيناً أن حصوله صواب وموافق للحكمة {إِنِّى أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ} أي إني أنهاك عن أن تكون من الجاهلين بالسؤال. سمي سؤاله عليه السلام جهلاً لأنَّ حب الولد شغله عن تذكر استثناء من سبق عليه القول منهم بالإهلاك.

{قَالَ رَبِّ إِنِّى أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ} أي أعوذ بك من أن أطلب منك من بعد هذا مطلوباً أعلم أن حصوله مقتضى الحكمة {وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِى} جهلي وإقدامي على سؤال ما ليس لي به علم {وَتَرْحَمْنِى} بقبول توبتي {أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ} أعمالاً وليس في الآيات ما يقتضي صدور ذنب ومعصية من نوح عليه السلام سوى إقدامه على سؤال ما لم يؤذن له فيه وهذا ليس بذنب ولا معصية وإنما لجأ إلى الله تعالى وسأله المغفرة والرحمة لأن حسنات الأبرار سيئات المقربين {قِيلَ} أي قال الله: {يٰنُوحُ ٱهْبِطْ} أي انزل من السفينة {بِسَلَٰمٍ} أي ملتبساً بأمن من جميع المكاره المتعلقة بالدين {مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ} أي خيرات نامية عليك وهذا بشارة من الله تعالى بالسلامة من التهديد وبنيل الحاجات من المأكول والمشروب {وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ} أي وعلى أمم مؤمنة ناشئة من الذين معك إلى يوم القيامة {وَأُمَمٌ} كافرة متناسلة ممن معك {سَنُمَتِّعُهُمْ} مدة في الدنيا {ثُمَّ} في الآخرة {يَمَسُّهُمْ مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ} فقوله وأمم مبتدأ وجملة قوله سنمتعهم خبر {تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ} أي تلك التفاصيل التي بيناها من الأخبار التي كانت غائبة عن الخلق {نُوحِيهَآ} أي تلك الأخبار {إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ} بطريق التفصيل {مِن قَبْلِ هَٰذَا} أي من قبل إيحائنا إليك بنزول القرآن {فَٱصْبِرْ} على أذى هؤلاء الكفار كما صبر نوح على أذى أولئك الكفار {إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ} أي آخر الأمر بالظفر في الدنيا وبالفوز في الآخرة {لِلْمُتَّقِينَ} كما عرفته في نوح وقومه ولك فيه أسوة حسنة {وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَٰهُمْ} أي

ولقد أرسلنا إلى عاد واحداً منهم في النسب نبيهم {هُودًا قَالَ يٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ} وحده {مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ} بالرفع صفة للمحل وبالجر على قراءة الكسائي صفة للفظ {إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ} أي كاذبون في قولكم: إن الأصنام تستحق العبادة {يٰقَوْمِ لاۤ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ} أي على إرشادكم إلى التوحيد {أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِى} أي خلقني {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أني مصيب في المنع من عبادة الأصنام {وَيٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ} أي سلوه أن يغفر لكم ما تقدم من شرككم {ثُمَّ تُوبُوۤاْ إِلَيْهِ} من بعد التوحيد بالندم على ما مضى وبالعزم على أن لا تعودوا لمثله {يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ} أي المطر {عَلَيْكُمْ مِّدْرَاراً} أي كثير السيلان {وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ} بالمال والولد والشدة في الأعضاء قيل: حبس الله تعالى عنهم المطر ثلاث سنين وعقمت نساؤهم ثلاثين سنة ولم تلد {وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ} أي ولا تعرضوا عمّا أدعوكم إليه مصرين على آثامكم {قَالُواْ يٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ} أي بمعجزة {وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىۤ ءَالِهَتِنَا} أي بتاركي عبادتها {عَن قَوْلِكَ} أي لأجل قولك {وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ} أي بمصدقين بالرسالة {إِن نَّقُولُ إِلاَّ ٱعْتَرَاكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوۤءٍ} أي ما نقول في شأنك إلا قولنا: أصابك بعض آلهتنا بجنون لأنك شتمتها ومنعت عن عبادتها {قَالَ إِنِّىۤ أُشْهِدُ ٱللَّهِ} على {وَ ٱشْهَدُوۤاْ} أنتم على {أَنِّى بَرِيۤءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِ} أي من إشراككم آلهة من دون الله {فَكِيدُونِى جَمِيعًا} أي فاعملوا في هلاكي أنتم وآلهتكم جميعاً {ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ} أي لا تؤجلوني {إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمْ} أي إني فوضت أمري إلى الله مالكي ومالككم {مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ ءَاخِذٌ بِنَاصِيَتِهَآ} أي ما من حيوان إلا وهو تحت قهره وقدرته وهو منقاد لقضائه وقدره {إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي إنه تعالى وإن كان قادراً على عباده لكنه لا يظلمهم ولا يفعل بهم إلا ما هو الحق والعدل والصواب {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦۤ إِلَيْكُمْ} أي فإن تعرضوا عن الإيمان والتوبة لم أعاتب على تقصير في الإبلاغ لأني قد أبلغتكم وصرتم محجوجين من الله تعالى لأنكم أصررتم على التكذيب {وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ} أي يخلق ربي بعدكم من هو خير منكم وأطوع وهذا إشارة إلى نزول عذاب الاستئصال {وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئًا} أي لا ينقص هلاككم من ملك الله شيئاً {إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ} فيحفظ لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها {وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا} أي عذابنا الدنيوي وهو السموم التي تدخل من أنوفهم وتخرج من أدبارهم فترفعهم في الجو وتصرعهم على الأرض على وجوههم فتتقطع أعضاؤهم {نَجَّيْنَا

هُودًا وَ لَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ} وكانوا أربعة آلاف {بِرَحْمَةٍ} عظيمة كائنة {مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ} وهو العذاب الأخروي {وَتِلْكَ} القبيلة {عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَٰتِ رَبِّهِمْ} أي دلالة المعجزات على صدق هود {وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ} وجمع الرسول مع أنه لم يرسل إليهم غير هود لبيان أن عصيانهم له عليه السلام عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد {وَ ٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ} أي مرتفع متمرد {عَنِيدٍ} أي منازع معارض. أي واتبع السفلة أمر رؤسائهم الدعاة إلى الضلال وإلى تكذيب الرسل.

{وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ} أي جعل الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير مصاحباً لهم وملازماً في الدنيا والآخرة {أَلاَ إِنَّ عَادًا كَفَرُواْ رَبَّهُمْ} أي كفروا بربهم {أَلاَ بُعْدًا لِّعَادٍ} وهذا دعاء عليهم بالهلاك وتحقيرهم {قَوْمِ هُودٍ} عطف على بيان لعاد وهذه عاد القديمة إرم ذات العماد واحترز به عن عاد الثانية {وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحاً} وثمود اسم أبي القبيلة وبين صالح وبينه خمسة أجداد، وبين صالح وهود مائة سنة وعاش صالح مائتي سنة وثمانين سنة {قَالَ يٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ} وحده {مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ ٱلأَرْضِ} فإن الإنسان مخلوق من المني وهو متولد من الدم، وهم متولد من الأغذية، وهي إما حيوانية وإما نباتية فانتهاء الحيوانية إلى النبات وهو متولد من الأرض فثبت أن الله تعالى أنشأ الإنسان من الأرض {وَ ٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا} أي جعلكم سكان الأرض وصيَّركم عامرين لها أو جعلكم معمرين دياركم تسكنونها مدة أعماركم ثم تتركونها لغيركم {فَ ٱسْتَغْفِرُوهُ} أي آمنوا بالله وحده {ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ} من عبادة غيره {إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ} بالعلم والسمع والرحمة {مُّجِيبٌ} دعاء المحتاجين بفضله ورحمته {قَالُواْ يٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا} أي قبل نهيك إيانا عن عبادة الأوثان لما كنا نرى منك من دلائل السداد ومخايل الرشاد فإنك كنت تعطف على فقرائنا، وتعين ضعفاءنا، وتعود مرضانا فقوي رجاؤنا فيك أنك من الأحباب ومن أنصار ديننا فكيف أظهرت العداوة ثم قالوا متعجبين تعجباً شديداً: {أَتَنْهَانَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَا} أي ما عبدوه من الأوثان {وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ} من التوحيد وترك عبادة الأوثان {مُرِيبٍ} أي موقع في اضطراب القلوب وانتفاء الطمأنينة {قَالَ يٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ} أي أخبروني {إِن كُنتُ} في الحقيقة {عَلَىٰ بَيِّنَةً} أي بصيرة وبرهان {مِّن رَّبِّى وَءَاتٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً} أي نبوة {فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ} أي من ينجيني من عذابه {إِنْ عَصَيْتُهُ} أي بالمساهلة في تبليغ الرسالة وفي المجاراة معكم {فَمَا تَزِيدُونَنِى

غَيْـرَ تَخْسِـيرٍ} أي فمـا تزيـدونني بمـا تقولـون غيـر بصـيرة فـي خسـارتكم أي ومـا زادنـي قـولكم إلا قـولي لكـم إنكـم لخاسـرون {وَيٰقَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً} أي معجزة دالة على صدق نبوتي فإن الله خلقها من الصخرة في جوف الجبل حـاملاً مـن غيـر ذكـر على تلك الصورة دفعـة واحـدة وقـد حصل منهـا لبـن كـثير يكفـي الخلق العظيم {فَذَرُوهَا} أي فاتركوها {تَأْكُـلْ فِى أَرْضِ ٱللَّـهِ} أي ترع نباتها وتشرب ماءها فليس عليكم كلفة في مؤنتها وكانت هـي تنفعهم ولا تضرهم لأنهم كانوا ينتفعون بلبنها {وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُـوۤءٍ} أي لا تضـربوها ولا تطردوهـا، ولا تقربوهـا بشـيء مـن السـوء {فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ} أي عاجل لا يتراخى عن مسـكم بالسـوء إلا يسيراً وهو ثلاثـة أيـام {فَعَقَرُوهَـا} أي فقتلهـا قـدار بـن سـالف ومصدع بن زهر وقيل: زينت عقرهـا لهـم عنيـزة أم غنـم، وصـدقة بنت المختار فضربها قدار بـأمرهم فـي رجليهـا فأوقعهـا، فـذبحوها وقسموا لحمها على ألف وخمسمائة دار. {فَقَالَ} لهم صـالح بعـد قتلهم لها: {تَمَتَّعُواْ} أي عيشوا {فِى دَارِكُمْ} أي في بلادكم {ثَلَٰثَـةَ أَيَّامٍ} من العقر الأربعاء والخميس والجمعة، ثم يأتيكم العذاب فـي اليوم الرابع يوم السبت وإنما أقاموا ثلاثة أيـام، لأن الفصـيل رغـى ثلاثـة وانفجـرت الصـخرة بعـد رغـائه فـدخلها، ولمـا عقـروا الناقـة أنذرهم صالح بنزول العذاب ورغبهم في الإيمـان فقـالوا: يـا صـالح ومـا علامـة العـذاب؟ فقـال: تصـير وجـوهكم فـي اليـوم الأول: مصفرة، وفي الثاني: محمرة، وفي الثالث: مسودة، وفـي الرابـع: يأتيكم العذاب صبيحته {ذٰلِكَ} أي نـزول العـذاب عقـب ثلاثـة أيـام {وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍفَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا} أي عذابنا {نَجَّيْنَـا صَـٰلِحاً وَ ٱلَّـذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ} أي ونجينا صـالحاً والـذين آمنوا معه من العذاب النازل بقـومه الكـافرين ومـن الخـزي الـذي لزمهم وبقي العيب منسوباً إليهم، لأن معنـى الخـزي العيـب الـذي تظهر فضيحته ويستحيا من مثله.

وقرأ الكسائي ونافع في رواية ورش وقالون هنا، وفي المعارج «يومئذ» بفتح الميم لإضافة «يوم» إلـى «إذ»، وهـو مبنـي فيكـون مبنياً. والباقون بكسر الميم فيهما لإضافة «يوم» إلى الجملـة مـن المبتدأ والخبر، فلما قطع المضاف إليه عن «إذ» نوّن ليدل التنوين على ذلك، ثم كسرت الذال لسكونها وسكون التنوين ولم يلزم من إضافة يوم إلى المبني أن يكون مبنياً لأن هذه الإضـافة غيـر لازمـة {إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ} فإنه أوصل ذلـك العـذاب إلـى الكـافر وصان أهل الإيمان عنه وهـذا التمييـز لا يصـح إلا مـن القـادر الـذي

يقدر على قهر طبائع الأشياء فيجعل الشيء الواحد بالنسبة إلى إنسان بلاء وعذاباً، وبالنسبة إلى إنسان آخر راحة وريحاناً.
{وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ} مع الزلزلة أي صيحة جبريل فقد صاح عليهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة، وصوت كل شيء في الأرض فتقطعت قلوبهم في صدورهم، فماتوا جميعاً {فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَارِهِمْ جُثِمِينَ} ميتين لا يتحركون ولا يضطربون عند ابتداء نزول العذاب ساقطين على وجوههم {كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ} أي كأنهم لم يقيموا في بلادهم فإنهم صاروا رماداً {أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ} قوم صالح من رحمة الله {وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرٰهِيمَ} من الملائكة جبريل وميكائيل وإسرافيل {بِٱلْبُشْرَىٰ} أي متلبسين بالبشارة له بالولد من سارة {قَالُواْ سَلَٰماً} أي سلمنا عليك سلاماً {قَالَ سَلَٰمٌ} أي قال إبراهيم: أمري سلام أي لست مريداً غير السلامة.
وقرأ حمزة والكسائي هنا «وفي الذاريات» بكسر السين وسكون اللام {فَمَا لَبِثَ} أي إبراهيم {أَن جَآءَ بِعِجْلٍ} أي في المجيء بولد بقرة {حَنِيذٍ} أي مشوي على حجارة محماة في حفرة في الأرض فوضعه بين أيديهم {فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ} أي العجل {نَكِرَهُمْ} أي أنكرهم {وَأَوْجَسَ} أي أدرك {مِنْهُمْ خِيفَةً} وظن أنهم لصوص حيث لم يأكلوا من طعامه فلما علموا خوفه {قَالُواْ لاَ تَخَفْ} منا يا إبراهيم {إِنَّا أُرْسِلْنَا} بالعذاب {إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ} وهو ابن هاران أخي إبراهيم {وَ ٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ} تخدم الأضياف وتسمع مقالتهم وإبراهيم عليه السلام جالس معهم {فَضَحِكَتْ} أي ففرحت سارة بزوال الخوف عنها وعن إبراهيم وبحصول البشارة بحصول الولد، وبهلاك أهل الفساد. وقال مجاهد وعكرمة: أي حاضت سارة عند فرحها بالسلامة من الخوف فلما ظهر حيضها بشرت بحصول الولد {فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ} على ألسنة رسلنا وإنما نسبت البشارة لسارة دون سيدنا إبراهيم عليه السلام، لأنها كانت أشوق إلى الولد منه لأنها كانت لم يأتها ولد قط بخلافه فقد أتاه إسماعيل قبل إسحاق بثلاث عشرة سنة {وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ} قرأه ابن عامر وحمزة وحفص عن عاصم ويعقوب بالنصب، أي ووهبنا يعقوب من بعد إسحاق. والباقون بالرفع على الابتداء. أي ومن بعد إسحاق يعقوب مولود. {قَالَتْ يٰوَيْلَتَا} هي كلمة تقال للتعجب عند أمر عظيم. أي يا ذلي احضر فهذا أوان حضورك {ءَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ} بنت ثمان وتسعين سنة {وَهَٰذَا بَعْلِى} أي زوجي {شَيْخًا} ابن مائة وعشرين سنة {إِنَّ هَٰذَا} أي حصول الولد من هرمين مثلنا {لَشَىْءٌ عَجِيبٌ} بالنسبة

إلى سنة الله تعالى المسلوكة فيما بين عباده ومقصودها استعظام نعمة الله تعالى عليها في ضمن الاستعجاب العادي لا استبعاد قدرته تعالى على ذلك {قَالُواْ} أي الملائكة لسارة: {أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ} أي من قدرة الله {رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ} أي يا أهل بيت إبراهيم، أي رحمة الله الواسعة لكل شيء وخيراته الفائضة منه بواسطة تلك الرحمة لازمة لكم لا تفارقكم، فإذا رأيتم أن الله خرق العادات في تخصيصكم بهذه الكرامات العالية فكيف يليق به التعجب {إِنَّهُ حَمِيدٌ} أي فاعل ما يستوجب الحمد وموصل العبد المطيع إلى مراده {مَّجِيدٌ} أي كريم لا يمنع الطالب عن مطلوبه {فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ} أي فلما زال عن إبراهيم الخوف وحصل له السرور بسبب مجيء البشرى بحصول الولد جادل رسلنا في شأن قوم لوط حيث قال للملائكة حين قالوا: إنا مهلكوا أهل هذه القرية: أرأيتم لو كان فيها خمسون رجلاً من المؤمنين أتهلكونها؟ قالوا: لا. قال: فأربعون؟ قالوا: لا. قال: فثلاثون؟ قالوا: لا، حتى بلغ العشرة قالوا: لا. قال: أرأيتم إن كان فيها رجل مسلم أتهلكونها؟ قالوا: لا، فعند ذلك قال: إن فيها لوطاً. قالوا: نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين {إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَحَلِيمٌ} أي غير عجول على كل من أساء إليه فلذلك طلب تأخير العذاب عنهم رجاء إقدامهم على الإيمان والتوبة عن المعاصي {أَوَّاهٌ} أي كثير التضرع إلى الله عند وصول الشدائد إلى الغير {مُّنِيبٌ} أي رجاع إلى الله في إزالة ذلك العذاب عنهم قالت الملائكة لإبراهيم: {يٰإِبْرٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ} أي اترك هذا الجدال {إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ} بإيصال هذا العذاب إليهم {وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ} أي غير مصروف عنهم ولا مدفوع بجدال ولا دعاء ولا غيرهما {وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا} أي هؤلاء الملائكة {لُوطاً سِىۤءَ بِهِمْ} أي حزن بسببهم {وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا} أي صدراً لأنهم انطلقوا من عند إبراهيم إلى لوط عليهما السلام ودخلوا عليه في صور شبان مرد حسان الوجوه، فخاف أن يقصدهم قومه وأن يعجز عن مدافعتهم وبين القريتين أربع فراسخ {وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ} أي شديد علي، فلما دخلت الملائكة دار لوط عليه السلام ولم يعلم بذلك أحد خرجت امرأته الكافرة فأخبرت قومها وقالت: دخل دارنا قوم ما رأيت أحسن وجوهاً ولا أنظف ثياباً، ولا أطيب رائحة منهم.

{وَجَآءَهُ} أي لوطاً وهو في بيته مع أضيافه {قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ} أي يسوق بعضهم بعضاً {إِلَيْهِ} لطلب الفاحشة من أضيافه {وَمِن

قَبْلُ} أي والحال من قبل مجيء هؤلاء الملائكة إلى لوط {كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ} وهي إتيان الرجال في أدبارهم أي فهم معتادون لذلك فلا حياء عندهم. {قَالَ} أي لوط: {يٰقَوْمِ هَٰؤُلاۤءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ} أي فتزوجوهن. والمراد بالجمع ما فوق الواحد لما صحت الرواية أن لسيدنا لوط عليه السلام بنتين فقط وهما زنتا وزعوراء.

وقال السدي: اسم الكبرى ريا، والصغرى رغوثا وكان في ملته يجوز تزوج الكافر بالمسلمة، أو قال ذلك على سبيل الدفع لا على سبيل التحقيق وكانوا يطلبونهن من قبل ولا يجيبهم لخبثهم وعدم كفاءتهم، لا لعدم جواز تزويج المسلمات من الكفار {فَاتَّقُواْ اللَّهَ} بترك الفواحش {وَلاَ تُخْزُونِ فِى ضَيْفِى} أي لا تخجلوني في أضيافي لأن مضيف الضيف يلزمه الخجل من كل فعل قبيح يصل إلى الضيف {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ} يهتدي إلى الحق ويرعوي عن الباطل، ويرد هؤلاء الأوباش عن أضيافي. {قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ} يا لوط {مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ} أي شهوة أي إنك قد علمت أن لا سبيل إلى المناكحة بيننا وبينك {وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ} من إتيان الذكران {قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِى إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ} أي لو قويت على دفعكم بنفسي أو رجعت إلى عشيرة قوية لبالغت في دفعكم. وإنما قال ذلك لأنه لم يكن من قومه نسب بل كان غريباً فيهم لأنه كان أولاً بالعراق مع إبراهيم فلما هاجرا إلى الشام أرسله الله تعالى إلى أهل سذوم وهي قرية عند حمص أو المعنى لو قويت على الدفع لدفعتكم بل أعتصم بعناية الله تعالى {قَالُواْ} أي هؤلاء الملائكة: {يٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوۤاْ إِلَيْكَ} بضرر فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب ودخلوا فضرب جبريل عليه السلام بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم فخرجوا وهم يقولون: النجاء النجاء فإن في بيت لوط قوماً سحرة {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ} أي فاخرج مع أهلك في نصف الليل لتستبقوا العذاب الذي موعده الصبح {وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ ٱمْرَأَتَكَ}.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بالرفع أي لا يتأخر منكم أحد إلا امرأتك واعلة المنافقة. والباقون بالنصب. والمعنى لا ينظر أحد إلى ورائه منك ومن أهلك إلا امرأتك وإنما نهوا عن الالتفات ليسرعوا في السير فإن من يلتفت إلى ما وراءه لا يخلو عن أدنى وقفة وهذه القراءة تقتضي كون لوط غير مأمور بالإسراء بها وقراءة الرفع تقتضي كونه مأموراً بذلك {إِنَّهُ مُصِيبُهَا} أي امرأتك {مَآ أَصَابَهُمْ} من العذاب {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ} أي إن وقت عذابهم وهلاكهم

الصبح لأنه وقت الراحة فحلول العذاب حينئذ أفظع وهذا تعليل للنهي عن الالتفات المشعر بالحث على الإسراع {أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} وهذا تأكيد للتعليل فإن قرب الصبح داع إلى الإسراع في الإسراء للتباعد عن مواضع العذاب {فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا} أي وقت عذابنا وهو الصبح {جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا} أي عالي قرى قوم لوط وهي خمس مدائن فيها أربعمائة ألف ألف {سَافِلَهَا}.

روي أن جبريل عليه السلام أدخل جناحه الواحد تحت مدائن قوم لوط وقلعها وصعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نهيق الحمار، ونباح الكلاب، وصياح الديوك ولم تنكفىء لهم جرة ولم ينكب لهم إناء، ثم قلبها دفعة واحدة وضربها على الأرض. {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا} أي على أهل تلك القرى الخارجين عنها في الأسفار وغيرها {حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} أي من طين متحجر {مَّنْضُودٍ} أي كان بعض الحجارة فوق بعض في النزول {مُّسَوَّمَةً} أي مخططة بالسواد والحمرة والبياض. أي كان عليها علامة تتميز بها عن حجارة الأرض {عِندَ رَبِّكَ} أي في خزائنه التي لا يتصرف فيها أحد إلا هو {وَمَا هِى مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ} أي ما هذه الحجارة من كل ظالم ببعيد فإنهم بسبب ظلمهم مستحقون لها أي فإن الظالمين حقيق بأن تمطر عليهم {وَإِلَىٰ مَدْيَنَ} أي وأرسلنا إلى أولاد مدين بن إبراهيم عليه السلام {أَخَاهُمْ} في النسب {شُعَيْبًا قَالَ يٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ} وحده ولا تشركوا به شيئاً {مَا لَكُمْ مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَ ٱلْمِيزَانَ} أي لا تنقصوا حقوق الناس بالكيل والوزن {إِنِّىٓ أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ} أي ملتبسين بسعة تغنيكم عن النقص {وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ} إن لم توفوا بالكيل والوزن {عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ} أي يحيط بكم ولا ينفلت منكم أحد {وَيٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَ ٱلْمِيزَانَ} أي أتموهما {بِٱلْقِسْطِ} أي بالعدل من غير زيادة ولا نقصان {وَلاَ تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ} بسبب عدم اعتدالهما {أَشْيَآءَهُمْ} أي أموالهم التي يشترونها بهما {وَلاَ تَعْثَوْاْ فِى ٱلأَرْضِ مُفْسِدِينَ} أي ولا تعلموا في إفساد مصالح الغير فإن ذلك في الحقيقة إفساد مصالح أنفسكم {بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ} أي المال الحلال الذي يبقى لكم خير من تلك الزيادة الحاصلة بطريق التطفيف {إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} أي مصدقين لي في مقالتي لكم.

وقرىء «تقية الله» بالفوقية أي تقواه تعالى عن المعاصي. {وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} أي أحفظكم من القبائح ولست بحافظ عليكم نعم الله إذ لو لم تتركوا هذا العمل القبيح لزالت النعم عنكم.

{قَالُواْ يٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءابَاؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيۤ أَمْوَالِنَا مَا نَشَؤُا} وقوله: {أَوْ أَن نَّفْعَلَ} معطوف على «ما يعبد»، و«أو» بمعنى الواو. والمعنى هلا صلاتك تأمرك بتكليفك إيانا ترك عبادة ما يعبد آباؤنا من الأوثان، وترك فعلنا ما نشاء من الأخذ والإعطاء والزيادة والنقص.

روي أن شعيباً كان كثير الصلاة في الليل والنهار، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا، فقصدوا بقولهم: أصلاتك تأمرك السخرية {إِنَّكَ لأنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ} أي كنت عندنا مشهوراً بأنك حليم رشيد فكيف تنهانا عن دين ألفيناه من آبائنا {قَالَ يٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى} أي علم وهداية ودين ونبوة {وَرَزَقَنِي مِنْهُ} أي من عنده بإعانته بلا كد مني {رِزْقًا حَسَنًا} أي مالاً حلالاً. فهل يجوز لي مع هذا الإنعام العظيم أن أخون في وحيه، وأن أخالفه في أمره ونهيه؟ وهذا الجواب مطابق لقولهم لسيدنا شعيب إنك لأنت الحليم الرشيد فكيف يليق بك مع حلمك ورشدك أن تنهانا عن دين آبائنا؟ فكأن شعيباً قال: إن نِعَم الله تعالى عندي كثيرة وهو أمرني بهذا التبليغ والرسالة فكيف يليق بي مع كثرة نعم الله تعالى على أن أخالف أمرهُ ومعنى الآية على هذا الوجه يا قوم أخبروني إن كنت نبياً من عند الله تعالى ورزقني مالاً حلالاً أستغني به عن العالمين أيصح أن أخالف أمره وأوافقكم فيما تأتون وما تذرون {وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَٰكُمْ عَنْهُ} أي ليس مرادي أن أمنعكم عن التطفيف وأن أفعله {إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ ٱلإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ} أي ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتي مدة استطاعتي للإصلاح لا أقصر فيه. والمعنى أنكم تعرفون من حالي أني لا أسعى إلا في الإصلاح وإزالة الخصومة حتى إنكم أقررتم بأني حليم رشيد فلما أمرتكم بالتوحيد وترك إيذاء الناس، فاعلموا أنه دين حق وأنه ليس غرضي منه إيقاع الخصومة فإنكم تعرفون أني أبغض ذلك الطريق ولا أدور إلا على ما يوجب الصلاح بقدر طاقتي وذلك هو الإبلاغ والإنذار. {وَمَا تَوْفِيقِى} أي ما قدرتي على تنفيذ كل الأعمال الصالحة {إِلاَّ بِٱللَّهِ} أي إلا بمعونته وهدايته {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} أي عليه تعالى اعتمدت في جميع أموري {وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} أي عليه أقبل {وَيٰقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِى} أي لا تكسبنكم معاداتكم لي {أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ} من الغرق {أَوْ قَوْمَ هُودٍ} من الريح العقيم {أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ} من الصيحة والرجفة {وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ} أي وما خبر أهلاك قوم لوط بالخسف منكم ببعيد فإن لم تعتبروا بمن قبلكم من الأمم المعدودة فاعتبروا بهم فإن بلادهم قريبة من مدين وإهلاكهم أقرب الإهلاكات التي

عرفها الناس في زمان شعيب {وَ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ} عن عبادة الأوثان {ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ} عن النجس {إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ} أي عظيم الرحمة للتائبين {وَدُودٌ} أي محب لهم {قَالُواْ يٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ} أي ما نفهم مرادك وإنما قالوا ذلك لأنهم لم يجدوا إلى محاورته سبيلاً سوى المنع عن طريق الحق كما هو ديدن المفحم المحجوج {وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا} أي فيما بيننا {ضَعِيفًا} أي لا تقدر على منع القوم عن نفسك إن أرادوا بك سوءاً {وَلَوْلاَ رَهْطُكَ} أي لولا حرمة قومك عندنا بسبب كونهم على ملتنا {لَرَجَمْنٰكَ} أي لقتلناك بالحجارة أو لشتمناك وطردناك {وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ} أي معظم فيسهل علينا قتلك وإيذاؤك وإنما نمتنع من ذلك لرعاية حرمة عشيرتك لموافقتهم لنا في الدين لا لقوة شوكتهم. {قَالَ} لهم: {يٰقَوْمِ أَرَهْطِى أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ} والمعنى حفظكم إياي رعاية الأمر الله تعالى أولى من حفظكم إياي رعاية لحق رهطي فالله تعالى أولى أن يتبع أمره {وَ ٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيّاً} أي جعلتم الله شيئاً منبوذاً خلف ظهرك منسياً لا يعبأ به {إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ} من الأعمال السيئة {مُحِيطٌ} أي عالم فلا يخفى عليه شيء منها فيجازيكم عليها {وَيٰقَوْمِ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ} أي على غاية استطاعتكم من إيصال الشرور إلي {إِنِّى عٰمِلٌ} بقدر ما آتاني الله تعالى من القدرة {سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ} أي سوف تعرفون الشقي الذي يأتيه عذاب يهلكه والذي هو كاذب في ادعاء القوة والقدرة على رجم شعيب عليه السلام وفي نسبته إلى الضعف {وَ ٱرْتَقِبُوٓاْ} أي انتظروا عاقبة ما أقول {إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ} أي منتظر {وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا} أي عذابنا {نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ} من ذلك العذاب {بِرَحْمَةٍ مِّنَّا} أي بسبب مرحمة كائنة منا لهم {وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ} أي صيحة جبريل والزلزلة أيضاً فأهلكوا بهما {فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جٰثِمِينَ} أي ميتين ملازمين لإماكنهم.

{كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ} أي كأنهم لم يقيموا في ديارهم أحياء مترددين {أَلاَ بُعْدًا لِّمَدْيَنَ} أي هلاكاً لقوم شعيب {كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ} أي كما هلكت قوم صالح أي فإنهما أهلكا بنوع من العذاب وهو الصيحة إلا أن هؤلاء صيح بهم من فوقهم وأولئك من تحتهم وهذا في أهل قرية شعيب وأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بعذاب الظلة وهو نار نزلت من السماء أحرقتهم {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ} أي ولقد أرسلنا موسى بالتوراة مع ما فيها من الأحكام وأيدناه بمعجزات قاهرة دالة على صدق نبوته ورسالته

{إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِ} أي جماعته {فَ ٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ} أي أمره إياهم بالكفر بموسى ومعجزاته {وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} أي بمرشد إلى خير فإنه كان دهرياً نافياً للصانع والمعاد، وكان يقول: لا إلٰهَ للعالم وإنما يجب على أهل كل بلد أن يشتغلوا بطاعة سلطانهم وعبوديته رعاية لمصلحة العالم {يَقْدُمُ قَوْمَهُ} أي يقود قومه جميعاً، {يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ} أي إن فرعون كان قدوة لقومه في الضلال وفي دخول البحر والغرق في الدنيا، فكذلك يتقدمهم يوم القيامة في دخول النار والحرق {وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ} أي بئس الورد الذي يردونه النار لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الأكباد والنار على ضد ذلك {وَأُتْبِعُواْ} أي الملأ الذين تبعوا أمر فرعون {فِى هَٰذِهِ} أي في الدنيا {لَعْنَةً} من الأمم بعدهم إلى يوم القيامة {وَيَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ} أيضاً من أهل الموقف قاطبة {بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ} أي بئس العون المعان عونهم، أي بئس اللعنة الأولى المعان باللعنة الثانية عونهم وهي اللعنة في الدارين، وسميت اللعنة عوناً لأنها إذا تبعتهم في الدنيا أبعدتهم عن رحمة الله وأعانتهم على ما هم فيه من الضلال وسميت رفداً أي عوناً لهذا المعنى على التهكم وسميت معاناً لأنها أرفدت في الآخرة بلعنة أخرى ليكونا هاديين إلى طريق الجحيم {وَ ٱلْعَٰدِيٰتِ * فَٱلْمُورِيٰتِ قَدْحاً * فَ ٱلْمُغِيرٰتِ صُبْحاً * فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً * فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً * إِنَّ ٱلإِنسٰنَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ * وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكَ لَشَهِيدٌ * وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ * أَفَلاَ يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ * وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ * ءإِنَّ} أي الذي ذكرناه في هذه السورة من القصص السبعة {مِنْ أَنبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُ عَلَيْكَ} أي ذلك بعض أخبار القرى المهلكة بجناية أهلها مقصوص عليك لتخبر به قومك لعلهم يعتبرون وإلا فينزل بهم مثل ما نزل بالقرى المهلكة {مِنْهَا} أي القرى {قَآئِمٌ} أي أثر باقٍ {وَ} منها {وَحَصِيدٌ} أي ذاهب الأثر فشبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه وما محي منها بالزرع المحصود {وَمَا ظَلَمْنٰهُمْ} بالعذاب والإهلاك {وَلٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ} بالكفر والمعصية {فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ} أي فما نفعتهم أصنامهم الذين يعبدونها في شيء ألبتة، ولا دفعت شيئاً من عذاب الله عنهم حين جاءهم {وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ} أي وما زادت الأصنام عابديها غير إهلاك فإن الكفار كانوا يعتقدون في الأصنام أنها تعين على تحصيل المنافع ودفع المضار، ثم زال عنهم بسبب ذلك الاعتقاد منافع الدنيا والآخرة، وجلب إليهم مضار الدنيا والآخرة فكان ذلك من أعظم موجبات الخسران.

وقرىء «آلهتهم اللاتي» بالجمع، و«يدعون» بالبناء للمجهول {وَكَذٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ} وقرأ عاصم والجحدري «إذ أخذ» بألف واحدة.

{وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ} أي ومثل ذلك الأخذ المذكور أخذ ربك أهل القرى إذا أخذهم وهم ظالمون أنفسهم بالكفر أي إن كل من شارك أولئك المتقدمين في فعل ما لا ينبغي فلا بد وأن يشاركهم في ذلك الأخذ {إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} أي وجيع صعب على المأخوذ لا يرجى منه الخلاص {إِنَّ فِى ذٰلِكَ} أي القصص السبعة {لآيَةً} أي لموعظة {لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلآخِرَةِ} فينتفع بسماع هذه القصص ويعلم أن القادر على إنزال عذاب الدنيا قادر على إنزال عذاب الآخرة فإن في هذه القصص عذاب الدارين وقد حصل عذاب الدنيا {ذٰلِكَ} أي يوم الآخرة {يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ} أي يجمع في ذلك اليوم الأولون والآخرون للمحاسبة والجزاء {وَذٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ} أي يحضر فيه أهل السماء وأهل الأرض {وَمَا نُؤَخِّرُهُ} أي ذلك اليوم {إِلاَّ لأَجَلٍ مَّعْدُودٍ} أي إلا لأجل انقضاء وقت محدود وهو مدة الدنيا {يَوْمَ يَأْتِ} أي حين يأتي ذلك اليوم المؤخر {لاَ تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلاَّ بِإِذْنِهِ} أي الله تعالى في التكلم فالمأذون في الكلام هو الجوابات الصحيحة والممنوع عنه هو ذكر الأعذار الباطلة {فَمِنْهُمْ} أي من أهل الموقف {شَقِىٌّ} أي من مات على الكفر وإن تقدم منه إيمان {وَسَعِيدٌ} أي من مات على الإيمان وإن تقدم منه كفر.

{فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ} أي فمستقرون فيها {لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ} أي صوت شديد {وَشَهِيقٌ} أي صوت ضعيف {خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰوٰتُ وَٱلأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ} وإلا في المعنى بمعنى واو العطف، والاستثناء منقطع بقدر بلكن أو بسوى. فالمعنى دائمين في النار مثل دوام السموات والأرض منذ خلقت إلى أن تفنى، وزيادة على هذه المدة وهي ما شاء مما لا نهاية له {إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ} من غير اعتراض {وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمٰوٰتُ وَٱلأَرْضُ إِلاَّ مَا شَآءَ رَبُّكَ} أي مثل دوام السموات والأرض منذ خلقتا سوى ما شاء ربك زائداً على ذلك وهو لا منتهى له {عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} أي غير مقطوع وعطاء نصب على المصدرية أي يعطيهم عطاء وهذا ظاهر في أنه ليس المراد من هذا الاستثناء كون هذه الحالة منقطعة وما ذكر من أن عذاب الكفار في جهنم دائم أبداً هو ما دلت عليه الآيات والأخبار، وأطبق عليه جمهور الأمة سلفاً وخلفاً ولا ظلم على الله في ذلك لأن الكافر كان عازماً على الكفر ما دام حياً

فعوقب دائماً فهو لم يعاقب بالدائم إلا على دائم فلم يكن عذابه إلا جزاء وفاقاً.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم «سعدوا» بضم السين. والباقون بفتحها. {فَلاَ تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَـؤُلاء} أي فلا تك يا أشرف الخلق في شك من حال ما يعبد كفار قريش من الأوثان في أنها لا تنفع لهم {مَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ كَمَا يَعْبُدُ ءَابَاؤهُم مِّن قَبْلُ} أي ليس لهم في عبادة الأصنام مستند إلا تقليد آبائهم فإنهم أشبهوا آباءهم في لزوم الجهل والتقليد {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ} أي إنا معطو هؤلاء الكفرة ما يخصهم من العذاب ونصيبهم من الرزق والخيرات الدنيوية تاماً كما أعطينا آباءهم أنصباءهم من ذلك {وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَـبَ} أي التوراة {فَ ٱخْتُلِفَ فِيهِ} أي في شأنه. فآمن به قوم وكفر به قوم آخرون كما اختلف قومك في القرآن فلا تحزن فإن ما وقع لك وقع لمن قبلك. {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ} أي لولا الحكم الأزلي بتأخير العذاب عن أمتك إلى يوم القيامة لأوقع القضاء بين المختلفين من قومك بإنزال العذاب الذي يستحقه المبطلون ليتميزوا به عن المحقين {وَإِنَّهُمْ} أي وإن كفار قومك {لَفِى شَكٍّ} عظيم {مِّنْهُ} أي القرآن {مُرِيبٍ} أي ظاهر الشك أو موقع في الشك {وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ}.

قرأ ابن كثير ونافع وأبو بكر عن عاصم «إن» و«لما» مخففتين، وأبو عمرو والكسائي شددا «إن» وخففا «لما»، وحمزة وابن عامر وحفص شددوهما، أي وإن كل المختلفين فيه المؤمنين منهم والكافرين والله لفريق يوفيهم ربك أجزية أعمالهم، أو المعنى وإن جميعهم والله {لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ} الآية. قالوا: وأحسن ما قيل إن أصل لما لمّا بالتنوين بمعنى جميعاً {إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ} أي إن ربك بما يعمله كل فرد من المختلفين من الخير والشر عالم لا يخفى عليه شيء من أعمال عباده وإن دقت {فَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ} أي مثل الاستقامة التي أمرت في العقائد والأعمال والأخلاق فإن الاستقامة في العقائد اجتناب التشبيه والتعطيل، وفي الأعمال الاحتراز عن الزيادة والنقصان وفي الأخلاق التباعد عن طرفي الإفراط والتفريط وهذا في غاية العسر وعن بعضهم قال: رأيت النّبيّ صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له: روي عنك أنك قلت: شيبتني هود وأخواتها، فقال: «نعم» فقلت: وبأي آية؟ فقال بقوله تعالى: «{فَ ٱسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}». {وَمَن تَابَ مَعَكَ} من الكفر وشاركك في الإيمان ف«من» منصوب على أنه مفعول معه أو مرفوع عطف على الضمير في أمرت {وَلاَ تَطْغَوْاْ}

أي لا تتحرفوا عمّا حد لكم بإفراط أو تفريط فإن كلاً طرفي قصد الأمور ذميم {إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} فيجازيكم على ذلك.

{وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ} أي ولا تميلوا أدنى ميل إلى الذين وجد منهم الظلم {فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ} أي فتصيبكم بسبب ذلك {وَمَا لَكُمْ مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ} أي من أنصار ينقذونكم من النار {ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ} من جهة الله تعالى.

قال المحققون: الركون المنهي عنه هو الرضا بما عليه الظلمة من الظلم ومشاركتكم في شيء من تلك الأبواب فأما مداخلتهم لدفع ضرر أو اجتلاب منفعة عاجلة فغير داخل في الركون {وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ} أي غدوة وعشية فالصبح في الغدوة والظهر والعصر في العشية {وَزُلَفاً مِّنَ ٱلَّيْلِ} أي ساعات منه قريبة من النهار وهي المغرب والعشاء {إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ} كالصلوات الخمس {يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّئَٰتِ} أي يكفرنها وفي الحديث: «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر».

روي أن أبا اليسر بن عمرو الأنصاري قال: أتتني امرأة تشتري تمراً فقلت لها: إن في البيت تمراً أطيب من هذا. فدخلت معي البيت، فقبلتها، فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له فقال: استر على نفسك، وتب ولا تخبر أحداً. فأتيت عمر فذكرت ذلك له فقال: استر على نفسك، وتب ولا تخبر أحداً. فلم أصبر حتى أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فقال لي: «أخنت رجلاً غازياً في سبيل الله في أهله بمثل هذا» وأطرق رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلاً حتى نزلت هذه الآية فقرأها علي فقال: «نعم اذهب فإنها كفارة لما عملت». {ذٰلِكَ} أي القرآن {ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ} أي عظة للمتعظين أو ذلك الحسنات كفارات لذنوب التائبين. {وَ ٱصْبِرْ} يا أشرف الخلق على مشاق ما أمرت به {فَإِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ} أي إن الله يوفي الصابرين أجور أعمالهم من غير بخس أصلاً {فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ} والمراد بالتخصيص النفي أي فما كان من القرون الماضية المهلكة بالعذاب جماعة أصحاب جودة في العقل، وفضل ينهون عن الفساد إلا قليلاً وهم من أنجيناهم من العذاب نهوا عن الفساد {وَ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ} أي واتبع الذين تركوا النهي عن المنكرات ما أنعموا من الشهوات واشتغلوا بتحصيل الرياسات وأعرضوا عما وراء ذلك {وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ} أي كافرين فإن سبب استئصال الأمم المهلكة فَشْو الظلم وشيوع ترك النهي عن المنكرات مع الكفر {وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا

مُصْلِحُونَ} أي لا يهلك ربك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات بينهم، أي إن عذاب الاستئصال لا ينزل لأجل كون القوم معتقدين للشرك بل إنما ينزل ذلك إذا أساءوا في المعاملات وسعوا في الإيذاء للناس، وظلم الخلق لفرط مسامحته تعالى في حقوقه ولذلك تقدم حقوق العباد على حقوقه تعالى عند تزاحم الحقوق {وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي أهل ملة واحدة وهي الإسلام بحيث لا يختلف فيه أحد ولكن لم يشأ ذلك {وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَإِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ} أي ولا يزالون مخالفين لدين الحق إلا قوماً قد هداهم الله تعالى بفضله إليه فلم يخالفوه {وَلِذٰلِكَ خَلَقَهُمْ} أي وللمذكور من الاختلاف والرحمة خلق الناس كافة فإن الله تعالى خلق أهل الباطل وجعلهم مختلفين، ومصيرهم النار. وخلق أهل الحق وجعلهم متفقين ومصيرهم الجنة. {وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ} أي ثبت قول ربك {لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ} أي من كفارهما أجمعين {وَكُلاًّ} أي كل نبأ {نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلرُّسُلِ} أي من أخبارهم وما جرى لهم مع قومهم {مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ} أي ما نقوي به قلبك لتصير على أذى قومك وتتأسى بالرسل الذين خلوا من قبلك {وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ} الأنباء المقصوصة عليك { ٱلْحَقُّ} أي البراهين الدالة على التوحيد والنوبة {وَمَوْعِظَةٌ} أي تنفير عن الدنيا {وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ} أي إرشاد لهم إلى الأعمال الصالحة.

{وَقُل لِّلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ} بهذا الحق { ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ} أي ثابتين على حالتكم وهي الكفر {إِنَّا عَامِلُونَ} على حالتنا وهي الإيمان. أو المعنى افعلوا كل ما تقدرون عليه في حقي من الشر فنحن عاملون على قدرتنا. والمراد بهذا الأمر: التهديد {وَ ٱنْتَظِرُوۤاْ} ما يعدكم الشيطان به من الخذلان {إِنَّا مُنتَظِرُونَ} ما وعدنا الرحمن من أنواع الغفران والإحسان {وَللَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} فإن علمه تعالى نافذ في جميع الكليات والجزئيات والحاضرات والغائبات عن العباد {وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلأَمْرُ كُلُّهُ} أي أمر الخلق كلهم في الدنيا والآخرة {فَٱعْبُدْهُ} أي فاشتغل بالعبادات الجسدانية والروحانية أما العبادات الجسدانية فأفضل الحركات الصلاة وأكمل السكنات الصيام وأنفع البر الصدقة وأما العبادات الروحانية فهي الفكر والتأمل في عجائب صنع الله في ملكوت السمٰوات والأرض {وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ} أي ثق به تعالى في جميع أمورك فإنه كافيك {وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

وقرأ نافع وابن عامر وحفص بالتاء على الخطاب، أي فإنه تعالى لا يضيع طاعات المطيعين، ولا يهمل أحوال المتمردين الجاحدين،

وذلـك بـأن يحضـروا فـي موقـف القيامـة ويحاسـبوا علـى النقيـر والقمطير، ويعاتبوا فـي الصـغير والكـبير، ثـم يحصـل عاقبـة الأمـر فريق في الجنة وفريق في السعير.